ملح على جرح:

..قل لى ما الذى تعرفه عن أدولف هتلر!

أنيس منصور

أكتوبر

وقفت الشعوب اليهودية كلها وراء السيد مناحم بيجين عندما غضب على ما نشرته الصحف المصرية عنه وهتلر – عن المقارنة بينهما ! ..

وعندهم ملايين الضحايا لأن يكرهوا ذلك . وليست عندنا أسباب كثيرة لأن نقارن بين الرجلين .

أما حجة اليهود فهى أن هتلر قد أحرقهم وأبادهم رجالا ونساء وأطفالا . وكان ذلك أبشع ما حدث فى تاريخ الشعوب اليهودية من عذاب وهوان . يكفى أن تجد كل أسرة يهودية أنها ناقصة أبا أو أما أو أخا . والذى مزقهم هو هذا الرجل هتلر .. فالخوف وعدم الشعور بالأمان وعدم الثقة بالمستقبل وبالناس كلها عميقة كالغرائز وليس من السهل علاجها فى عشرات السنين . وليس غريبا . أن يكون من بين فلاسفة الخوف رجال مثل : كافكا وفرويد وسنجر وشاجال ..

ولم يصل إلى القاهرة يهودى إسرائيلى أو أمريكى أو إنجليزى إلا كان الطبق الأول على مائدة الحوار هو الكلام عن المقارنة بين هتلر وبيجين ..

وأجرينا تجارب محدودة . فسألنا عددا من الشبان والمثقفين المصريين عن : ما الذى يخطر على بالك مباشرة إذا قرأت أو سمعت اسم هتلر ..

ولم يكن من بين الإجابات شىء يدل على أن هتلر هو الذى أحرق اليهود فى أفران الغاز . وفى بعض الأحيان جاء هذا المعنى صدفة .

وفى ذلك دليل على أن هتلر ليس المعنى الأول ولا الفزع الأول الذى يهز كيان أى مصرى . بل ليس فى حياة أى مصرى مثل هذا الذى أصاب اليهود فى ألمانيا وبولندا فى عهد الهتلرية ! ..

وقد أمسكت ورقة وقلما وقلت : ولماذا لا أفعل نفس الشىء وأكتب ما يرد على رأسى أنا أيضاً :

هتلر تساوى حكم الألمان ، كما أن نابليون إيطالى حكم الفرنسيين ..

هتلر ولد فى سنة ١٨٨٩ وقد ولد معه فى نفس السنة والشهر : المؤرخ العظيم أرنولد توينبى والسياسى البريطانى ستافورد كريبس والطاغية البرتغالى سالازار والممثل الانجليزى شارلى شابلن ..

وولد الزعيم جواهر لال نهرو ..

وأدباء مصر : العقاد وطه حسين والمازنى ..

والمؤرخ عبد الرحمن الرافعى ..

وأديب فرنسا : جان كوكتو ..

وثلاثة من فلاسفة الوجودية هم : الألمانى مارتن هيدجر والفرنسيان جبريل مارسيل وجان فال ..

وكذلك أكبر مؤرخى الفلسفة الوجودية فرينيس هايمان ..

وأديب إسرائيل : صمويل أجنون الذى فاز بنصف جائزة نوبل فى الأدب ..

وأديب روسيا : بوريس باسترناك مؤلف رواية « دكتور جيفاجو » الذى رفض جائزة نوبل فى الأدب ..

واثنان من علماء النفس هما : تيودور رايك وسيرجى روبنشتاين ..

وبنى برج إيفل فى باريس ..

وولد العالم الاجتماعى الأمريكى اليهودى سيجفريد كراكاور الذى أنتج فيلما بعنوان « من كاليجارى إلى هتلر » ..

وفى هذه السنة ألف هكسلى كتابه : الشك ..

وبدأ اندريه جيد : اليوميات ..

وأصدر الفيلسوف برجسون كتابه : « المعطيات المباشرة للضمير » ..
ومات شاعر بريطانيا روبرت برونتج ..

ومات هتلر سنة ١٩٤٥ منتحرا ..
وفى نفس السنة وقبله بيوم واحد اغتيل صديقه بنيتو موسولينى ..
ومات السياسى البريطانى لويد جورج ، والرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت ، ومات السياسى الفرنسى لافال ، والقائد الفرنسى باتون ، والشاعر الكبير بول فاليرى ..
وظهر فيلمان شهيران هما : إيفان الرهيب .. وروما مدينة مفتوحة ..
وأكمل المثال العظيم هنرى مور تمثاله الشهير « العائلة » ..
وألقيت القنبلة الذرية .
وتم اكتشاف فيتامين (أ) .
وتطورت أجهزة الرادار ..

وقد أجرى متحف الشمع لمدام تيسو فى لندن استفتاء بين ٣٥٠٠ من الزائرين فيما بين سنة ١٩٧٠ و١٩٧٨ على أبغض الناس فى التاريخ فكانوا :

١ – هتلر
٢ – عيدى أمين
٣ – نيكسون
٤ – ماوتسى تونج
٥ – دراكولا ..

ادولف هتلر

غاندى

شارلى شابلن

وبذلك تكون كل معلوماتى عن هتلر قد قاربت نهايتها ..
وأخيرا
فإن
هتلر
قد
أحرق
ملايين اليهود
فى أفران الغاز ..

وقد رأيت واحدا منها فى « داخاو » بالقرب من مدينة نورمبرج التى أجريت فيها محاكمات مجرمى الحرب العالمية الثانية . وداخاو : مكان بشع .. فمنذ اللحظة الأولى وقدمك تتعثر وتتعثر فى تراب أسود .. يجعلك تحس أن هذا هو رماد الفرن .. أو أنه بقايا الضحايا .. وتدخل فتخوض فى هباب أسود ، ثم تجد غرفا مظلمة تعلقت عليها صور مروعة لليهود قبل أن يموتوا .. ولم يطق الزوار ذلك فامتدت أيديهم إلى الصور يمزقونها .. ثم غرف الغاز .. وعلى جدرانها أظافر ودماء ..

رأيت ذلك وضقت وفزعت .. وظللت يوما أو أكثر .. وطويت نفسى على ذلك . وأسقطت المنظر والذكرى فى مقبرة النسيان ، وهذا ما لا يستطيعه أى يهودى . وهو معذور فى ذلك .. ولا يمكن أن يقبر أباه وأمه وأخاه وابنه بهذه السهولة فى غياهب اللاشعور ..

ولذلك فهذه الذكريات السوداء نائمة فى مشاعرهم ، وليست ميتة . ونومها خفيف جدا .. لا تكاد تقترب منها حتى تقفز فى فزع – وهذا بالضبط ما فعله السيد مناحم بيجين الذى جرب الاعتقال فى السجون والتعذيب والهرب إلى إسرائيل ، ليكون واحدا من أعمدتها وحراس تاريخها .. ثم يكون بعد ذلك « عقدة » يصعب حلها أو فهمها دون الرجوع إلى التاريخ اليهودى فى أوروبا وفى فلسطين ! .

ولذلك فى رسالته التى بعث بها إلى الرئيس السادات بتاريخ ١٨ أغسطس الماضى ، انتهز هذه الفرصة ليحرك مواجع إسرائيل والشعوب اليهودية الأخرى . ويبين كيف ان بعض المصريين يشبهونه بما فعله هتلر باليهود . ولن يتردد أى يهودى فى أن يقف وراءه فورا .

وكانت حجة المصريين أن طرد هتلر لليهود من ألمانيا ، هو الذى دفعهم إلى البحث عن وطن ، وإلى الانتقام من الفلسطينيين الذين لم يكونوا سببا فيما أصاب اليهود من تعذيب ..

وحجة بيجين أن البحث عن وطن أو عن « الوطن » حلم تاريخى قديم .. ولن ينتهى الكلام عن هتلر وبيجين قبل وقت طويل جدا ..

ولكن أهم ما فى هذه « الأزمة » أن نتخذ منها دليلا على المسافة الكبيرة بيننا وبينهم .. وعلى معانى الأسماء ، وعلى تداعى المعانى ..

وعليهم أن يعرفوا ما الذى نفهمه ، وعلينا أن ندرك ما الذى يوجعهم . وهذا شرط ضرورى للتفاهم من أجل حسن الجوار غدا ، والسلام بعد غد ..

فهل بقيت معان أخرى يمكن أن ترد إلى الذهن عند الكلام عن هتلر؟

ربما يقال إن هتلر كان يعانى من أنه صغير الحجم . وإن كان الذين يقفون أمامه وحوله يرونه عملاقا ، والحقيقة أنه قصير القامة مثل شارلى شابلن الذى ولد معه ..

وكان هتلر يشكو من أنه له أصابع أنثى . ولم يعرف أحد بالضبط لون عينى هتلر : هل هما زرقاوان هل خضراوان هل عسليتان ؟ فلم يكن أحد يجرؤ على النظر فى عينيه .. وكان البريق العجيب فى عينيه سببه أنه ضعيف النظر ، وأنه يحتاج إلى أن يضغط على عينيه ليرى أوضح ..

وفى التاريخ الحديث أناس كانت عقدتهم أن أجسامهم ضئيلة مثل هتلر . فالكاتب الكبير أرتور كيسلر كان يستحم عندما سمع والدته تقول لصديقة لها : احمدى ربنا أن ابنك كبير الحجم .. أما مصيبتى أنا أن ابنى صغير فى كل شىء .. كأن الله خلقه ثم نسيه .. أو خلقه ثم نسى أن يقول لنا : إن البقية سوف تأتى .. ولم تأت للولد بقية ! ..

وكان كيسلر يعلم هذه المأساة . ولذلك كان لا يشارك زملاءه فى الرياضة أو فى الرقص . وقد توفر على القراءة فقرأ عندما بلغ العشرين ما لم يقرأه أنشط إنسان فى مائة سنة . وكان يتكلم ست لغات . وقد اخترع أجهزة كهربية وهو طفل ..

وكذلك كان لورانس العرب ضئيل الحجم ، وكان يقول عن نفسه إننى « عملاق جيب » .. أو أطول قزم فى التاريخ .. وكذلك هنرى فورد .. ووزير الدعاية الألمانى يوسف جوبلز والموسيقار موريس رافل ، والزعيم الهندى غاندى والرسام بول سزان ..

ولا أظن أن لدى معلومات أخرى عن الزعيم الألمانى أدولف هتلر (١٨٨٩ – ١٩٤٥) غير أنه ابن غير شرعى ..

وغير أن سبب كراهيته لليهود أن أمه كانت تعمل خادمة عند أسرة يهودية فى فيينا ، ولا أظن هذا الخبر صحيحا . وقد رواه المؤرخ الأمريكى وليام شيرر فى كتابه « سقوط الرايخ الثالث » . ولا أظن أيضا أن هتلر يهودى كما جاء فى الصفحة الأولى من رواية « اليهود » للكاتب الفرنسى روجيه بيرفيت ..

ولكن من المعروف أن هتلر هو واحد من الأبناء غير الشرعيين فى التاريخ مثل : المستشار فيلى برانت والممثلة صوفيا لورين .. والرئيس الأرجنتينى خوان بيرون ، وكذلك زوجته إيفا بيرون .. والفنان العظيم دافنشى ، ورئيس وزراء بريطانيا رمزى ماكدونالد والمكتشف الانجليزى سير هنرى ستانلى ، والممثلة الفرنسية الشهيرة سارة برنار ، والأديب الفرنسى الكبير جان جينيه ..

وآخر ما عندى من معلومات عن هتلر بعد ذلك أنه عند تشريح جثته وجدوا أن له خصية واحدة . وكانت مفاجأة لا تقل عن مفاجأة الشعب التونسى كله عندما رأى الرئيس بورقيبه يصارحه بهذه الحقيقة ، وهى أن له خصية واحدة !

وعلى الأطباء والمشتغلين بالطب أن يجهدوا رءوسهم فى البحث عن الدلالة النفسية لذلك .. !

الحبيب بورقيبه

سول بيلو

ويوم

الأربعاء الماضى تحدث الرئيس السادات إلى أعضاء نادى هيئة تدريس جامعة الإسكندرية ، وكان الحديث والحوار متعة عقلية : صدق وشجاعة ووطنية . وتحدث الرئيس السادات عن الديمقراطية والدكتاتورية . وكان منذ طفولته حالما بالبطولة .. كان يقلد الزعيم غاندى ، وكان يقلد هتلر . وكان مفتونا بكمال أتاتورك .. إنه طفل يحلم بأن يكون بطلا يزحف من ميت أبو الكوم على القاهرة ..

ويوم تناقش أعضاء مجلس قيادة الثورة عن شكل الحكم الذى يناسبهم ، بعد طرد الملك فاروق . كان من رأيه : الدكتاتورية . قالها مرتين . واستنكر زملاؤه ذلك . وإن كان يعلم علم اليقين أن هذا بالضبط ما يريده جمال عبد الناصر . ويعترف الرئيس السادات بأن هذا الموقف كان من أكبر الأخطاء التى انزلق إليها فى حياته ! ..

ولكن عندما تولى الحكم اتجه إلى الديموقراطية وإلى أن يحكم الشعب نفسه بنفسه بالقانون . وبذلك يتحقق الأمان الذى لم يعرفه فى حياته السياسية ، فلا يدخل أحد السجن عند الفجر ، كما دخله هو ..

ولما

تحدث الرئيس السادات عن هتلر ، قال لى صحفى إسرائيلى : لقد لطمت خدى وأحفيت عينى وقلت : أزمة سياسية عنيفة مع مناحم بيجين . استر يارب ! ..

وقال الرئيس السادات : إن هتلر استطاع فى خمس سنوات أن يحقق المعجزات لبلاده صناعيا وعسكريا ! ..

ولم يخطر على باله هو ولا على بالنا نحن الذين جلسنا نستمع إليه ، ما فعله هتلر باليهود . إنما كل الذى على البال ، أن هتلر عدو للانجليز أعدائنا . وأننا مبهورون بقوته وانتصاراته الساحقة ..

بل إن الانجليز أنفسهم كانوا مبهورين بهتلر وروميل . وقد أصدر الجنرال أوكنلك لقواته المرابطة على الحدود المصرية هذا المنشور التاريخى : أيها الجنود لا تترومليا ! .. أى لا تتأثروا برومل إلى هذه الدرجة الجنونية . لأنها مصيبة كبرى أن يكون الإنسان مبهورا بعدوه الذى يقاتله . فمعنى ذلك أن لديه شعورا عميقا بأنه سوف ينتصر عليه ، بل يجب أن ينتصر عليه ..

وبذلك يكون روميل قد انتصر عليهم بالفعل دون أن يطلق عليهم رصاصة واحدة — منتهى السعادة لأعدائه المفتونين به ..

فلم نكن نحن المصريين وحدنا الذين أعجبنا برومل .. لعظمته العسكرية .

مارتن هدجر

طه حسين

ارنولد توينبى

سالازار

ولأن عظمته هذه هى سبب هزيمة أعدائنا الانجليز – وكذلك كان الشاب السياسى أنور السادات ..

وقد ذكر الكاتب اليهودى سول بيلو الفائز بجائزة نوبل فى الأدب فى كتابه « من القدس وإليها » أن الرئيس السادات قد بعث سنة ١٩٥٣ إلى سيدنى جروسون رئيس تحرير نيويورك تايمس وإلى السيدة كاترين جراهام صاحبة واشنطون بوست ، خطاباً يبدى فيه إعجابه بهتلر .. أى منذ ٢٧ عاما .. أما معنى هذا الخطاب فقد أعلنه الرئيس السادات فى الأسبوع الماضى : الإعجاب بألمانيا التى قفزت بسرعة هائلة وانتصرت فى كل الميادين .. وأعظم انتصاراتها كانت على أعدائنا التقليديين : الإنجليز ! ..

وأذكر أننى مثل كثيرين من الذين روعتهم حرب سنة ١٩٥٦ وفقدنا فيها الأخ والأخت وابن العم وستة من أعز الناس على نفسى فى لحظة واحدة أن دعونا الله كما فعل واحد من أنبيائه فى القرآن الكريم :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً » – إنه أحد الأنبياء يدعو ربه أن يبيد أعداءه ، وأعداء الله .. وقد تمنينا فى ذلك الوقت أن يهلك الله اليهود الذين هدموا علينا الأمن والسلام ، ومزقوا شمل الأب والأم والإخوة فى بور سعيد وغيرها ..

وقد نقل الكاتب الإسرائيلى الكبير عاموس إيلون عبارة قلنها فى ذلك الوقت : وهى أن هتلر لم يقتل منهم بما فيه الكفاية ..

وقد جاءت هذه العبارة فى كتاب له صدر أخيراً بعنوان « الفرار إلى مصر » ثم نقل عنى أننى فسرت ذلك بقولى : إن الكاتب فى زمن الحرب له مدفع هو قلمه .. وهذه العبارة واحدة من طلقات مدفعى ! ..

وبعد حرب ١٩٦٧ تمنى كاتب ألمانى يهودى فى رواية اسمها « مياه أسوان » أن يلقى اليهود قنبلة ذرية على السد العالى فتغرق مصر كلها فيكون طوفان .. ويجىء نوح جديد بسفينة من إسرائيل ينقذ الشعب المصرى . وبدلا من أن تكون مصر هبة النيل ، تكون مصر هبة اليهود. وقال هذا الكاتب : إن العرب قد أعلنوا أنهم سوف يدفنوننا فى البحر .. إننا الذين سوف نأتى لهم بالبحر . وسوف نهبهم الحياة .. كما وهبها نوح للبشرية كلها ! ..

ولا أظن أن هذا الكاتب الألمانى قد استوحى هذه الفكرة من الفيلسوف الفرنسى أندريه مالرو ، فقد وصف لنا أندريه مالرو فى كتابه « الذكريات المضادة » مشاعره أمام السد العالى فقال : ماذا يحدث لو ألقى اليهود قنبلة ذرية على هذا الضرح الهندسى الشامخ ..

ولم يشأ أندريه مالرو أن يكمل الصورة المروعة . وكأنه وهو الرجل الأثرى الكبير ، قد عز عليه أن يرى بنيانا جديدا دون أن يتخيله حطاما أو ركاما أثريا باليا ! ..

إن أحدا منا لا يستطيع أن يضع يده على حائط المبكى ويذرف دمعا ، فليس عندنا سبب لذلك . ولكن يجب ألا نستخف بمشاعر الذين يفعلون ذلك لأسباب من الضرورى أن تكون معروفة لدينا .. لأن المعرفة شرط التفاهم . والتفاهم مقدمة الصداقة التى هى رسول السلام ..

ومن سوء التقدير أيضا أن نطلب إلى الإسرائيليين أن يضحكوا معنا على نكتة أن هتلر شبيه بيجين .. أو أنه هو بيجين نفسه .. فإن كان الذى نفعله جهلا فالعيب فينا ، وإن كان الذى نقصده تجريحا متعمدا ، فيجب أن ندرك عواقب ذلك عند المؤسسات الشعبية ، وعند صناع القرار والمفاوضات والانسحاب ودعاة السلام فى إسرائيل ..

ولو رجعت إلى هذه المقالة من أولها لوجدت أن الذى ذكرته عن « الهولوكست » – وهى كلمة يونانية معناها « الحريق الشامل » لليهود فى معسكرات الاعتقال النازية – لا يزيد على عشرة سطور ..

والمعنى : هو أننى لم أتعمد ذلك .. إنما هذا بالضبط هو الخيز الذى يشغله هذا المعنى البشع عند المثقفين المصريين ، بينما صدرت عنه مئات الكتب والأفلام والمسرحيات واللوحات عند اليهود .. ولا لوم عليهم أو علينا ! ..

إن هذا « الحريق الشامل » جرح ينزف فى كل بيت وكل قلب يهودى فى أى مكان وفى أى وقت .. وإن كلامنا وسخريتنا من ذلك هى ملح نلقى به على جرح .. فلنوفر الملح حتى يلتئم الجرح ، فتنعم أجيال من بعدنا بما حرمنا منه : السلام علينا ورحمة الله وبركاته ! ..